مشكلاته، وهو على ذلك ناعم بعشرتها سعيد بما تحمله عليه من الرضا والسخط، ومن اللذة والألم، ومن النعيم والبؤس، ومن الظفر والحرمان. فلينتهز إذًا هذه الفرصة التي هيئت له، ولينعم بهذه السعادة التي تعرض عليه، وليعش في ظل شهرزاد ناعمًا بائسًا وسعيدًا شقيًّا كما تعيش رعيته في ظله هو ناعمة بائسة وسعيدة شقية. وقد كان يظن أنه الملك، وأن كلمته هي العليا، وأن أمره هو المطاع الذي لا معقب له، فقد ظهر له الآن أن هناك ملكًا أقوى منه وأعظم سلطانًا، وأنه هو الرعية لهذا الملك، وهل شهرزاد آخر الأمر إلا قوة متسلطة عليه تصرِّفه كما تريد وتدبر أمره كما تهوى دون أن يستطيع امتناعًا عليها أو إباء؟!

وكذلك أنفق شهريار نهاره الأول كالطفل خاضعًا لسلطان أمه الحنون، تأمره فيأتمر وتنهاه فينتهي، واجدًا في ذلك اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم، وكانت شهرزاد رفيقة به إلى أقصى غايات الرفق، محبة له إلى أبعد آماد الحب، تصرفه في فنون الهزل والجد، وتنقله في أطوار المرح والهدوء، حتى إذا ضرب الليل سرادقه المظلم الكثيف على الكون أوت به إلى غرفة من غرفاتها، فتحدثت إليه فنونًا من الحديث، وأسمعته ألوانًا من الغناء وضروبًا من الموسيقى، ثم أقبلت إليه آخر الأمر باسمة هادئة وقالت له في صوت متكسر بعض التكسر فاتر بعض الفتور: «قد آن للطفل أن يستريح إلى النوم فيما أظن، هلم إلى مضجعك يا مولاي.» ثم أخذت بيده ومضت وهو يتبعها مستسلمًا محبًّا لهذا الاستسلام منكرًا له في قرارة نفسه، سائلًا عن إرادته أين ندَّت، وعن قوته أين شردت، راجيًا ألا تعود إليه هذه الإرادة وألا ترد إليه هذه القوة، فمن الخير أن ينعم الإنسان «بإجازة» يستريح فيها من إرادته وقوته ومن ملكات نفسه كلها، وقد أذن لشهرزاد بهذه الإجازة، فهو ينعم بها غارقًا في لذاتها إلى أذنيه، وها هو ذا قد أوى إلى سريره، وها هي هذه شهرزاد تسوِّي له الوسائد حتى تطمئن إلى أنه قد استراح في مضجعه، ثم تنصرف عنه لنفسها شيئًا، ثم تعود إلى الغرفة فتمضي فيها ذاهبة آئبة مختلسة نظرة بين حين وحين إلى طفلها هذا الكبير. حتى إذا رأته قد اطمأن إلى النوم ومضى معه في طرقه المجهولة، أوت هي إلى سريرها فغاصت فيه غوصًا ودعت النوم، فما أسرع ما استجاب لها وشمل الغرفة هدوء متصل.

أطال هذا الهدوء أم قصر؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك؛ فقد كان الليل قد قطع في طريقه شوطًا بعيدًا قبل أن ينام العاشقان، ولكن شهريار يتنبه من نومه هادئًا مطمئنًّا لا يقول شيئًا ولا يأتي حركة، وإنما يمد سمعه نحو سرير شهرزاد فقد ألمَّ به طائفه ذاك فمس